الآراء الـــواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

على هامش الصراحة

كل خميس:

استذكاراً لصراحة (أبو كاطع)

■ إحسان شمران الياسري

نستعير في هذا العمود بعض ما كتبه الراحل (شمران الياسري- أبو كاطع) قبل أكثر من ثلاثة عقود، لنُريح الناس من الصخب الإعلامي، وليستذكروا سخريته ممن كانوا مسؤولين عن خلق المعاناة لهم.. فالترويح عن الناس جزءا مهما من تعزيتهم عما ينقصهم، وكان الراحل رائدا في إبهاجهم.. وستكون الاستعارة دون تلميح بصلتها بزماننا، بل يكفي أن يستمتع القارئ بها، ويخمن (رباط الحجي):

عدكم زبالة ؟!

إنهم في زاوية النسيان، ما داموا يؤدون عملهم اليومي المألوف، لكنهم يصبحون في مركز الانتباه يوم الغياب.. فإذا طال ليومين او ثلاثة وتفسخت النفايات في البراميل، او الزوايا المهجورة، تذكرهم سكان المحلة بسوء وقالوا:

هاي لويش ما دا تجي سيارة الزبل؟

شنو.. هي.. فوضى؟

ماكو رقابة ؟ ماكو امانة عاصمة ؟!

الحق مع الغاضبين: فكلنا نكره النتن والعفن، والحق مع غير الغاضبين الذين لم يعتادوا رؤية سيارات جمع النفايات (إلا لماما!)، وفي شوارعهم (المُحفّرة) متسع لرمي الاوساخ..

(ثم) الحق مع القائلين بوجود تمييز صارخ في الخدمات التي تؤديها امانة العاصمة.. فالفرق بين خدمات المنصور والمشتل (مثلا) كالفرق بين مذكرة اذن بالقبض، ومذكرة إلقاء قبض!..

ففي الاحياء المحظوظة ترى براميل النفايات مطلية باللون الفضي اللماع، مصفوفة على نسق هندسي بديع، جهزتها امانة العاصمة (مشكورة) وألزمت سياراتها بالمرور اليومي.. اما في المناطق (المسّلكَة) مثل حي المعلمين في الامين وحي العامل.. وحي النفط.. وما شاكل ذلك، فلا براميل – ولاهم يتعبون – والسيارات مثل هلال العيد.. وبالتالي اعتادت ربات البيوت على جمع ما فضل من المطبخ في الاواني (والبرميل الزغيرون) بباب (المطبخ) فاذا امتلأ الوعاء.. او (البرميل) ألقته ربة البيت – ليلا – في الشارع – وتكون شوارع الاحياء (المسلّكَة) فيها متسع لكثير من الأوساخ لانها – في العادة – غير مبلطة..

ولكن يحدث ان (تهل) سيارة جمع النفايات.. فينزل العامل ويقرع الجرس.. ويسأل (عدكم زبالة ؟).

حدث هذا قبل يومين: قُرع جرس الباب.. وخرج جارنا (ابو ناصر) فسأله العامل: (عدكم زباله ؟) فعاد ابو ناصر يسال زوجته (بحكم العادة) لانها أدرى، فاجابته زوجته:

ايه.. ايه.. عدنا زباله..

فما كان من جاري ابو ناصر الا ان يرفع صوته (بلبكة) ويرد على عمال سيارة الزبالة:

شكرا عيني شكرا..

عدنا زبالة ما نريد !!

قـــراءة الـنـصـوص وفـلـسـفـة الـدلالـة

آية الله السيد عمار أبو رغيف

- الجزء الثاني -

من هو الواضع؟

ذهب متكلّمو مدرسة العقل إلى إن البشر هم الذين اصطنعوا اللغة للتعبير عن المعاني، فاللغة، والكلام وجود حادث على غرار حدوث الكلام الإلهي،ومن ثم جاءت اللغة بمفرداتها ونظامها في سياق المواضعات الإنسانية والاعتبار والجعل البشري. أما متكلمو المدرسة السلفية وجمهور الأشاعرة فقد ذهبوا إلى قدم الكلام الإلهي،ومن ثم فاللغة ونظامها كائن أزلي،يبعد أن تقرره المواضعات الحادثة والاعتبارات البشرية،إنما هو المتكلم الأزلي ألهم الإنسان اللغة كما علّمه الشرع فاللغة توقيف وواضعها هو الله الذي "علم آدم الأسماء كلها"!. نقل السيوطي في المزهر عن أبي الفتح بن برهان في كتاب الوصول إلى الأصول: (اختلف العلماءُ في اللغة: هل تثبُتُ، توقيفاً أو اصطلاحاً؟ فذهبت المعتزلةُ إلى أن اللغات بأسْرِها تثبت اصطلاحاً، وذهبت طائفةٌ إلى أنها تثبتُ توقيفاً ... وقال أهلُ التحقيق من أصحابنا: لا بدّ من التوقيف في أصل اللغة الواحدة؛ لاسْتِحَالة وقوع الاصطلاح على أوّل اللغات من غير معرفةٍ من المصطلحَين بعَين ما اصطلحوا عليه؛ وإذا حصَل التوقيفُ على لغة واحدةٍ جازَ أن يكونَ ما بعدَها من اللغات اصطلاحاً، وأن يكون توقيفاً؛ ولا يُقْطَع بأحدهما إلاّ بدلالة).

في افق الجدل الكلامي وفي سياق ما عرف في التاريخ الإسلامي بـ(محنة القرآن)،حيث تحول الجدل الفكري إلى محنة يلعب بها السلطان لعبته،طرح موضوع نشوء اللغة وتحديد مقرر نظامها الدلالي بمفرداته وبناه الأساسية،فقاد القول بتقرّر الأفعال الإلهية الأزلي إلى القول بأن القرآن بمفرداته ونظامه الدلالي وجود ناجز قبل صيرورة الممكنات وقبل الإنسان وقيام نظامه الاجتماعي وحاجاته في إطار هذا النظام،فالقران قديم والكلام الإلهي قديم قدم الأفعال الإلهية. ومن ثم فاللغة بكل تكوينها مفردات وسياقات ونظاما دلاليا هي من صنع (الله)،وهو واضع الألفاظ لمعانيها،وعرف هذا المذهب في تفسير أصل الدلالة ومنشأ اللغة (التوقيف). ليس هناك أي لزوم منطقي بين القول بقدم الأفعال الإلهية وبين توقيفية اللغة أو سائر النظم الإشارية التي استخدمها وسيستخدمها البشر في مسيرة حياتهم. وأيضا ليس هناك لزوم منطقي بين القول بخلق القرآن وبين مذهب بشرية اللغة. يدلنا على ذلك ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره حيث قال: (قال الأشعري والجبائي والكعبي: اللغات كلها توقيفية. بمعنى أن الله تعالى خلق علماً ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني ... وقال أبو هاشم: إنه لابد من تقدم لغة اصطلاحية). فأبو علي الجبائي والكعبي كانا معتزليين،على أننا لا ننكر أن القول بقدم الكلام الإلهي يهيئ المناخ العام للقول بتوقيفية اللغة. لكننا ننكر اللزوم المنطقي،وضرورة الصيرورة إلى القول بالتوقيف جراء الإيمان بقدم الكلام الإلهي والذهاب إلى بشرية الوضع اللغوي،جراء القول بحدوث الكلام الإلهي،ويدلنا أيضا ما طرح في أطار مدرسة النجف الأشرف الحديثة من اتجاه،وهي مدرسة قائلة بخلق القرآن.

تبنّى الشيخ النائيني مذهب توقيفية اللغة،ولم يجد من سبب معقول غير (الله) يقف خلف استخدام الأصوات كنظام إشاري استخدمه البشر للتعبير عن مقاصدهم،وكشف الألفاظ عن معانيها. هذا هو رأي أحد الأساتذة المتأخرين من علماء أصول الفقه في مدرسة النجف الحديثة،ولابد من تمحيص الحيثيات والمرتكزات التي على أساسها أقام النائيني رأيه. هذا الرأي الذي انطلق من حيثيات الواقع التاريخي وواقع اللغة إلى فرض ميتافيزيقي،ولم يكن منطلقاً من قدم الأفعال وأزلية الكلام الإلهي (الميتافيزيقيا) إلى تحديد الواقع اللغوي،ولو كان كذلك لم يجد النائيني تناغماً واضحاً بين قوله بخلق القرآن وتوقيفية اللغة!.

أقام النائيني اتجاهه إلى توقيفية اللغة وأن واضعها "الله" على مجموعة حيثيات:

١) إنّ افتراض كون واضع اللغة من أبناء البشر،وانه قام بجعل واعتبار الألفاظ بإزاء معانيها افتراض تدحضه دلالات التاريخ الإنساني،إذ لو كان هناك واضع للغات أو للغة من اللغات كالعربية لثبّت التاريخ هذا الحدث الخطير ،وأسطورة (يعرب بن قحطان)،واضع اللغة العربية شاهد على ذلك،إذ لم يثبت هذا الحدث إنما بقي على حد الأساطير والحكايات الشعبية.

٢) ثم كيف يتسنى للبشر من وضع الألفاظ إزاء المعاني،وألفاظ اللغة لا تتناهى والمعاني لا حدود لها ؟ إن إحاطة البشر كل البشر بكل الأصوات،التي يمكن أن تستخدم كعلامات على المعاني،التي هي بدورها غير محدودة بحدود،أمر في حريم الاستحالة والامتناع .

٣)إنّ اللغة أداة لإشباع حاجات البشر في الاتصال ،الاتصال الذي يحفظ نظام حياة الإنسان،وإذا تجاوزنا فرض وجود واضع بشري أنجز الوضع مرة واحدة،وذهبنا إلى أن وضع اللغة يتم بصورة تدريجية فهذا الفرض لا يجدي في المقام. لأن السؤال يبقى قائما عن كيفية حفظ البشر لنظام حياتهم الإنسانية قبل إكمال وضع اللغة وهي أداة التواصل التي يقوم على أساسها نظام حياة البشر؟ ثم ماذا فعل الخلق الأوّل من الناس قبل التواضع على اللغة في تواصلهم مع بعضهم،وفي التوافق على النظام اللغوي؟.

٤)لهذه الحيثيات خلص النائيني إلى حتمية أن تكون قضية وضع اللغة وإيداع الألفاظ لتأدية المعاني منتهية إلى الله تعالى. أما كيف تم وضع وجعل الألفاظ بإزاء المعاني من قبل الله تعالى ؟ وهل وضعت الألفاظ لأداء معانيها بطريقة اعتباطية وباقتراح صرف،دون جهة موجبة اقتضت أداء المعنى بلفظه الخاص؟.

وقف النائيني عند هذه الأسئلة،التي تخرج جلها من حريم البحث عمن هو الواضع؟ وتدخل في دائرة تفسير النظام اللغوي وطبيعة الدلالة وتفسير جوهر عملية الوضع. فقد ذهب إلى أن جعل الألفاظ إزاء المعاني لا يدخل في دائرة الجعل التكويني،والعلاقة بين الألفاظ والمعاني ليست على غرار العلاقات التكوينية،ولا تدخل في دائرة المواضعات الصرفة والاعتبار البحت،وقد وقف معاصره المحقق العراقي عند هذا الموضوع،الذي يمثل نقطة خلاف بين أعلام جيل النائيني سنستعرضها لاحقاً.

أما قضية اعتباطية الوضع والدلالة أو انبثاقها على أساس حيثيات،فقد أكد النائيني أن إقامة الارتباط بين الألفاظ والمعاني لا تتم على أساس الترابط الطبيعي كما هو اتجاه المذهب الذاتي في تفسير الوضع،ولكنها لا تتم أيضا بصورة اعتباطية،مستنداً في ذلك إلى قاعدة استحالة الترجيح بلا مرجح. ولاستيضاح واستيفاء البحث في ما طرحه المحقق النائيني وفي قضية اعتباطية الوضع اللغوي أو قصديته ستكون لنا فرصة في القادم من فقرات هذه الدراسة. لكن المهم هنا أن نحاول فهم الفرضية التي ذهب إليها النائيني في تفسير الطريقة التي يتم عبرها التدخل الإلهي في بناء صرح النظام اللغوي وإقامة العلاقات بين الدوال والمدلولات اللغوية. والفرض الذي أكده النائيني في المقام هو أن الله تعالى يلهم البشر عملية استخدام ألفاظ خاصّة عند إرادة معان خاصة،على تنوع هذا الكائن،فالإلهام الإلهي متنوّع تنوع الناس.

استقرب بعض المحققين الأصوليين فرضية النائيني ،ولم يستبعدها بعض منهم ،لكنهم فرضوا أن الله تعالى ألهم الإنسان الأول اللغة بمفرداتها ونظامها،ثم أخذت اللغة تتحرك في حياة الآدميين وفق سنن الاجتماع البشري وقوانين التلقي والتعلم الإنساني. ونموذج هذا الاتجاه نجده في كلمات أستاذنا الشهيد محمد باقر الصدر،حيث قال: (نحن لا نملك برهاناً قاطعاً على نفي اتجاه إلهية الوضع وأن الوضع ونشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان كان من صنع نفسه مئة بالمئة. بل من المحتمل أن تكون قد بدأت هذه الظاهرة في حياة الإنسان أول ما بدأت بتدخل وعناية من الله سبحانه وتعالى،بأن يكون قد ألهم آدم فعلمه الأسماء والألفاظ وكيفية استخدامها في مجال نقل أفكاره وخواطره إلى الآخرين ،بل فرضية الإلهام بأصل اللغة لعلها هي المناسبة مع ما هو الملاحظ في جملة النصوص الدينية التي تؤكد أن الخليقة الأولى من البشر – آدم وزوجته – كان على معرفة واطلاع باللغة مكنتهما من الحوار والتفاهم في ما بينهما قبل أن يهبطا إلى الدنيا ويمارسا نشاطهما الطبيعي والاجتماعي فيها،وهذا من المستبعد جداً أن يحصل من دون افتراض إلهام رباني كان بذرة في طريق نشوء هذه الظاهرة بعد ذلك في حياة الإنسان). ليس لدي شك في أن النصوص الدينية تلعب الدور الأساس في فرضية الشهيد الصدر،إذ أن نظريته في تفسير الوضع على أساس القرن الأكيد بين اللفظ والمعنى لا تستدعي فرضية أن يكون الله هو الواضع،وهي تتجاوز –كما ذهب رحمه الله –كل المبعدات التي طرحت بشأن بشرية نشأة اللغة. سنأتي على درس وتقويم نظرية (القرن الأكيد) في تفسير الصلة بين اللفظ والمعنى،وسنقف أيضا عند قضية النصوص الدينية بدءاً من النص التوراتي لنستجلي الموقف منها. غير أن المهم هنا أن نعود إلى فرضية (الإلهام الإلهي) وان الله تعالى هو الذي يلهم اللغة لبني البشر،لنرى أولاً جدارة التفسير الذي ذهب إليه جمع من الأصوليين،والذي قرّر – كما تقدم – أن الله علّم البشر في بداية الخليقة اللغة،التي تفي بالاتصال بين الآدميين،ثم أخذت اللغة تتطور وتنمو وفق معطيات حياة البشر وقوانين وجودهم. إن فرضية التدخل الإلهي في إقامة النظام اللغوي بشكل أولي مبسط للخليقة الأولى،ثم ترك قوانين الاجتماع والنفس الإنسانية تلعب دورها في إكمال مسيرة اللغة نظاما ومفردات لا تتلاءم مع اتجاه النائيني،إذ نصُّ النائيني على بعض المسوغات التي دفعته إلى تأكيد أن الفرض الوحيد المعقول هو أن الله ألهم الإنسانية اللغة ووضع الألفاظ للمعاني،والمسوغات وتفسير النائيني لانتهاء

تشومسكي

كشف الألفاظ عن معانيها إلى الله تعالى تأبيان الفرض الذي رجحه الأصوليون المتقدم ذكرهم. فعدم تناهي المعاني والألفاظ لا يُحدُّ بلغة من اللغات ولا يقتصر على عصر أو جيل من الأجيال،ومن ثم لابد من أن يكون الإلهام مستمراً على طول العصور اللغوية،وعلى مختلف لغات بني البشر. ثم إن النائيني فسّر مذهبه بكون الله تعالى هو الواضع قائلاً: (فلابد من انتهاء كشف الألفاظ لمعانيها إليه تعالى شأنه بوجه، إما بوحي منه إلى نبي من أنبيائه، أو بإلهام منه إلى البشر، أو بإبداع ذلك في طباعهم، بحيث صاروا يتكلمون ويبرزون المقاصد بالألفاظ بحسب فطرتهم ، حسب ما أودعه الله في طباعهم)،من المؤكد أن فرض الوحي إلى نبي من الأنبياء يعني الوحي بكل لغة من اللغات إلى نبي من الأنبياء،ليخبر قومه بالألفاظ والمعاني التي لا تتناهى،وفرضية أن يكون الواضع (الله تعالى) قد أوحى بكلّ اللغات أو بلغة واحدة تشكل أُمّاً لكل اللغات إلى نبي واحد لا ينسجم مع المسوغ الذي حدا النائيني إلى القول بكون الواضع هو علاّم الغيوب،الذي يعرف ما لا يتناهى من الألفاظ والمعاني،إذ عدم قدرة استيعاب ألفاظ اللغة ومعانيها اللامتناهية يصدق في كل لغة من اللغات،ومن ثم ليس بإمكان أي جماعة بشرية أن تستوعب وتتعلم مالا يتناهى من المعاني والألفاظ .

وبتعبير أوضح: إن اللاتناهي في الألفاظ والمعاني لا يفرض علينا الصيرورة إلى فرضية ((التوقيف))،في وضع اللغة،لأن ما يتطلبه كل جيل وكل أُمّة من اللغة هو ما يستطيع هذا الجيل استيعابه من مفردات ومعان، وهو أمر متناه محدود بحدود حاجات البشر،وهذا لا يتطلب أن يكون الواضع هو (علاّم الغيوب). مضافا الى ان فرضية الوحي لكل نبي من الانبياء بتعليم قومه لغة من اللغات تتنافى مع ظاهر النص القرآني القائل : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ). على أن فرضية إلهام البشر من قبل الله تعالى لا يتصور لها معنى معقول – لا أقل في حدود أدواتنا ومعطياتنا التصورية والتصديقية – خارج إطار الفرض الثالث،الذي قرّر أن تكون اللغة إبداعاً تكوينياً وهبة قائمة في البناء الإحيائي للكائن البشري أودعها خالق الكون ومبدع الوجود. ولا أدري كيف صار النائيني إلى فرض الوحي (وحي الله إلى أحد أنبيائه)،ومثل هذا الفرض يرفض بنفس الحجة التي رفض بها النائيني فرضية الواضع البشري،ذلك أن مثل هذا الحدث الخطير لو كان قائما في حياة الأقوام والملل ،لتناقلته الأجيال،وعرفت كل لغة بواضعها من الأنبياء الذي علم الناس تلك اللغة. نعم، إن فرضية الوحي الإلهي باللغة لا تنسجم مع طبيعة صيرورة اللغة،هذه الصيرورة التدريجية التي تستوعب حياة أجيال وحقب، لا يقف ولم يقف نبي على رأس كل هذه الحقب!،ثم لو افترضنا أن نبياً من الأنبياء قام بتعليم الناس لغة من اللغات،فليس بوسعه أن يعلمهم ما لا يتناهى من الإمكانات الموجودة في المعاني وفي نظام الاتصال الصوتي، ومن ثم لا يحيطون إلا بنزر من إمكانات اللغة،والباقي منها ما لا يتناهى من الإمكانات والاستعدادات الكامنة بالقوة في المفاهيم والمعاني والألفاظ! ومن ثم نحتاج إلى علام الغيوب المحيط بما لا يتناهى من المعاني والألفاظ ليكمل لنا وضع اللغة بمفرداتها ونظامها! أما فرضية أن تكون اللغة إمكانية تكوينية أودعها باري الخلائق في الطباع البشرية فهي فرضية يتبناها بعض كبار علماء اللسانيات المعاصرين. وهي فرضية غريبة على مزاج الغرب التجريبي الحديث. إذ بعد سيادة المذهب التجريبي على مناهج العلوم اتجهت علوم اللغة والنفس والاجتماع صوب تفسير ظاهرة اللغة على أساس بيئي محض في إغفال متعمد لعناصر التكوين الأحيائي وما تتوارثه الإنسانية من إمكانات وجودية تدخل في نسيج التكوين السابق للتجربة ومعطيات المحيط والبيئة،فذهبوا إلى الخبرة والمران على أساس الترابط والانعكاس الطبيعي والشرطي،كأساس وحيد لتفسير الظاهرة اللغوية بكل تجلياتها،بل السلوك البشري بكل أشكاله. عندما نربط بين سؤال النائيني و بين معالجته مشكلة لانهائية المعاني نجد أن مصب فكر الرجل هو العقل الإنساني وعلى وجه التحديد العلاقة بين إمكانات وحدود هذا العقل واللغة،فهي إشكالية اللغة والمعرفة الإنسانية،هذه الإشكالية التي أرهقها (نعوم تشومسكي) بالبحث،وكانت منطلق نظريته في تحديد مصدر ملكة اللغة. قد لا يكون النائيني مستحضراً إشكالية إفلاطون،حيث صاغها (برتراند رسل) قائلاً: (كيف يمكن لأفراد النوع البشري أن يعرفوا ما يعرفونه على الرغم من قصر تجربتهم مع الكون ومحدوديتها)،إلا أن المؤكد أن سؤال النائيني بصدد مصدر هذا الكم اللامتناهي من المفاهيم والمعاني وما يعادلها من ألفاظ سؤال عن مصدر معرفة الإنسان باللغة،التي هي في جوهرها أفكار ومعان،ومن ثم كان النائيني مستحضرا إشكالية إفلاطون في وجهها اللغوي. أما (نعوم تشومسكي) فقد كانت مشكلة أفلاطون ماثلة أمامه بوجهها المعرفي عامة. وبصورتها المرتبطة بالمعرفة اللغوية على وجه التحديد،فكانت اللغة لدى تشومسكي ظاهرة تكوينية،وهي جزء من التركيب الفطري للكائن البشري خاصة،لا يهتدي البشر إليها بإلهام،بل هي التي تسوق الآدميين صوب الإلهام،وهي السمة المميزة للإنسان بين الكائنات الحية،واللازم الوجودي للعقل الإنساني. بل – وهذا الإضراب لكاتب السطور – هل يمكن أن نتصور عقلاً إنسانياً دون لغة،تؤدي الوظائف الأحيائية التي خلق من أجلها الإنسان،والاتصال إحدى هذه الوظائف. واللغة ليست وسيلة اتصال فحسب،كما ذهب تشومسكي وهو محق في ما ذهب. على حد ما نعرف – كما قال تشومسكي – فنمو هذه القدرة العقلية الإنسانية محكوم إلى حد بعيد بطبيعتنا الأحيائية الداخلية . لذلك فاللغة بصفتها قدرة طبيعية هي شيء يحدث لنا،مثل تعلمنا للمشي تماماً،وبكلمات أخر ليست اللغة شيئاً نتعلّمه،فاكتساب اللغة شيء يحدث لنا،لا شيئا نقوم بتنفيذه. وهو أشبه بوصولنا سن البلوغ،فنحن لا نتعلم أن نصل سن البلوغ،ولا نقوم بذلك لأننا رأينا أناساً آخرين يعملونه،بل سبب ذلك أننا هُيئنا لكي نقوم بذلك في وقت محدد).

(٣)

لعلّنا نتفق مع تشومسكي على أن التجربة والمران لا نستطيع بهما وحدهما تفسير المعرفة الإنسانية بكل تجلياتها،ولا نستطيع أيضا أن نركن إليها في تفسير اللغة نشأة ونمواً،إذ تروغ اللغة والمعرفة على أن تكون التجربة والخبرة الملهم الأوحد لجوانبها الإبداعية. بل حتى لما يبدو تراكميا منها. لكن السؤال الكبير يبقى ماثلاً،فما هو إذن الدور الذي تلعبه التجربة والتعليم في المعرفة عامة وفي معرفة اللغة خاصة. وإذا استطعنا تجاوز عقدة أصل اللغة ومصدر كينونتها بالملاذ إلى الملكات التكوينية فهل يمكن تفسير عقدة الدلالات اللغوية بالاتكاء على الفطرة والملكة الطبيعية ،دون أن تلعب التجربة والمواصفات دوراً أساسياً في هذا الإطار؟.

سنتناول بالتفصيل هذه الإشكالية وما يلابسها من أسئلة في محلّه المناسب خلال فصول وفقرات هذه الدراسة. وسنقتصر هنا على إلقاء الضوء على بعض الملاحظات منها ما يرتبط بالأسئلة المتقدمة وجميعها ترتبط بفقرة البحث،التي نشارف على الانتهاء منها،حيث نتناول الإجابة على الاستفهام : من هو الواضع ؟.

الملاحظة (١):

أتينا على الربط بين نظرية النائيني في تحديد واضع اللغة وبين نظرية تشومسكي ورعيل من اللسانيين المعاصرين ،الذين يمثلون ما يعرف بالمدرسة الطبيعية. واعتقد أن هذا الربط ليس إقحاماً ولياً لأعناق مذاهب الفكر،لنعانق بين هذه المذاهب المتنافرة منهجيا والتي تتعارض سياقاتها المعرفية والتاريخية، لوضوح إن اختلاف المناهج لا يحول دون المقارنة بين اتجاهات الدارسين، بل لعل المقارنة بين النظريات المتشابهة في الفروض والمختلفة منهجيا سيعود على متابعي مناهج العلوم وفلسفاتها – خصوصا فلسفات التأويل المعرفية – بما هو مثمر في تطوير الفروض والخروج من أزمة المصادرات المعوقة التي خلقها اقنوم (الحداثة) أو قل أقانيمها المقدسة.

نحن أبناء هذا الزمن التاريخي بما ترك لنا من بنية إحيائية وتجارب ورؤى،نحن إبناء الراهن الذي نعاصره، ونتوخى أن نواكبه إلى الأمام،لكن هذا الوعي لا يحول دون إن نتيقظ ونعي أوهام (الحداثة) المقدسة. إن كارثة أوهام (الحداثة) ووثنها الأكبر تقديسها لأقنوم التكاملية التطورية في فهم حركة التاريخ الإنساني بمنجزاته الثقافية والمدنية . واهمٌ من يتصور إمكانية أن يكون (الجدل) التكاملي قانون التاريخ الإنساني. قد نجد وجها ومندوحة لأطروحة جدل الطبيعة وديالكتيك الوجود،ولكن لا مندوحة أمام رؤية التاريخ الإنساني على أساس التطور الديالكتيكي سواء لدنا بميتافيزيقيا المطلق أم استوثقنا بالقاعدة المادية لتفسير الوجود والمعرفة. ذلك أن وقائع التاريخ الإنساني تكذب هذه الرؤية،وتبطل هذه الفرضية باستمرار.

إن النزعة التطورية التي استحكمت سدى ولحمة مع النظرية المادية للوجود والمذهب التجريبي في المعرفة تفضي في نهاية المآل إلى حتمية تأريخية،لا يتبناها المذهب الماركسي (وهو احد تجليات الحداثة حتما) فحسب،بل هي سمة (الحداثة) ومنزل النظرة المتعالية لحضارة الغرب الحديث،حيث غاية الانجاز الذي تحققه الإنسانية،في ضوء النزعة التكاملية التطورية،التي أرسى قواعدها (فرانسيس بيكون) وقامت على هديها مدارس علم الاجتماع الحديث.

إن إيقاف حركة التاريخ الإنساني في محطة الليبرالية الاقتصادية والسياسية عند "فوكوياما"،تجل لنزعة التكامل التاريخي والنظرة المتعالية لإنجاز الحضارة المعاصرة. ومن ثم فهي نتاج النظرة الآلية لحياة الكائن الإنساني مهما استبدلنا الصيغ،وحاولنا المروغ على الحتمية بإنكار مبدأ السببية مرة وإنكار دور العوامل الوراثية مرة أخرى،أو لذنا بالنزعة الفردية ورفع لواء البرجماتية وأنكرنا النظم الشمولية واستبدلناها بالليبرالية الشاملة. إن استعجال قيامة الحياة الإنسانية ليس خيالا ولا خيالا خصباً،إنما هو وهم معطل ومعيق. أن تكون بروليتاريا السلطة المنزل النهائي الذي تحط عنده ركائب المسيرة الضاربة في أعماق التاريخ الإنساني أو تكون الليبرالية أو أي مذهب آخر،وأن تكون التجريبية هي قدر التقدم العقلي ومصير المعرفة الحتمي،أو مآلاتها من فقدان الثقة بالعقل والتهاوي في الارتياب المعرفي والشك،أو تكون البرجماتية ومذاهب المصلحة والسعادة غاية المأمول من التأمل الإنساني الأخلاقي والقدر النهائي للكائن الإنساني،كل هذا ديالكتيك القهقرى ورجوعية إلى جهمية بن صفوان وظلام مذاهب القدر والحتمية التاريخية أو الميتافيزيقية،إنه أرثودوكسية لا حدود لتشددها وعقمها. أن نعتقد أن تقدم العلم ونمو المعرفة رهن استبدال النماذج الإرشادية،وأن نماذجنا الإرشادية هي غاية ما وصل إليها العقل الإنساني،أو أن نعتقد أن نمو المعرفة وتقدم العلم مدين للتراكمات التي توالت عبر الكشوف والاختراعات،وأن نعتقد أن أسرار المعرفة التي أماط التقدم العلمي اللثام عنها هي كل ما لم يدركه السلف وفاز الخلف بنيله واكتشافه. كل هذه الاعتقادات أو الفروض مصادرات تتطلب بجد إعادة النظر فيها. نعم،التشرنق بانجازات الراهن عقبة كؤود أمام نمو الحياة المدنية وتقدم المعرفة وبناء التقنية الإنسانية،على غرار الانكفاء على انجازات السلف والتغني بليالي ألف ليلة،والفخر بابن الهيثم وابن سينا وسائر أبناء الماضي الآخرين. إن كوى المعرفة لا تحتاج في جودتها وخصوبتها تقنيات هندسية،بل هي انفلاق عفوي لا يتيح فخارا أو ميزة لعصور التقنيات على بعضها.

الملاحظة (٢):

هناك استقطاب نظري في تفسير نشأة اللغة يناظر الاستقطاب العتيد في الفلسفة بين المثل الأفلاطونية والمقولات القبلية وبين الخبرة الحسية والتجربة والممارسة . اعني الاستقطاب الحديث بين النزعة الطبيعية المعاصرة بحديها الأقصى والأدنى،وبين الاتجاهات الوضعية التي تستمد مبرراتها من عدة حجج وترتضع روافد متباينة. وبين هذين القطبين وقف كثير من الباحثين في محاولات تبدو في الأعم الأغلب مساع توفيقية،أكثر منها ومضات إبداعية. إن هذا الاستقطاب في مجمل فروضه سواء تلك التي تقف عند محوري الاستقطاب أم تلك التي تراوح في ساحة التوفيق بين القطبين ليس جديداً على ساحة النقاش العلمي،بل تجده في عمق جدل اليونان وفي مداولات فلاسفة المسلمين وفي تراث اللغة العربية بحقوله المختلفة فاتجاهات التوقيف والطبع والمواضعة تداولها الدرس اللغوي والأصولي... إنه الاستقطاب المعرفي المزمن الذي لا يقتصر على اللغة،بل تمتد آثاره على مختلف حقول المعرفة الإنسانية من نفس واجتماع وتاريخ وتربية،بل حتى العلوم التجريبية،وتلعب الخيارات في إطار هذا الاستقطاب دوراً كبيراً في تشكيل الرؤى في فلسفة العلوم،إنه الجدل القبلي والبعدي وتدافع الفطري والمكتسب.

ومن ثم يضحى مشروعاً ومسوّغاً أن نقرأ النائيني في أضواء تطورات هذا الجدل الإنساني المستمر،وأعتقد أنه سيستمر طويلاً لأنه يبحث في عمق سر من أسرار الوجود وفي كنه الإبداع التكويني،بل في كنه أبدع ما في هذا الإبداع من تجليات،إنها المعرفة الإنسانية! هذه المعرفة التي لا تستقيم إلا أن تكون معاصرة أي أن تفكر بلغة العصر،وتستخدم أدواته المعرفية،وتتصل بسبب وثيق مع أسئلة العصر. لكن المعاصرة لا تعني أن نترجم رؤانا وأيدلوجيتنا من لغات أخرى،بل ترجمة الرؤى الوجودية والمعرفية خيانة للعصر وغدر بأجياله المتطلعة على حدّ غدر هذه الأجيال بسجنهم بلغات الماضي،واجترارهم لرؤى،كتبت بلغة أخرى،واستحدثها جيل غابر لا يجوز تقليده. أعني أن اللغة ما لم تكن لغة النصوص الخالدة – لا يمكن أن تكون معياراً دائمياً لكشف حقائق الوجود ،وتحديد معالم الكشف ومنطق الاستنتاج. فنحن لا نستطيع اليوم مثلاً أن نفكر بلغة متكلّمي القرون الخوالي أو حتى حكماء الدورة الأخيرة من فلاسفة المسلمين، فالوجود من وجهة نظر ابن سينا والقاضي عبد الجبار وملا صدرا ليس وجودنا، وماهيته ليست ماهيتنا،بل لا بد من فكر جديد ولغة جديدة تستجيب لمتطلبات ما نحن فيه من أسئلة،وما يطرحه الراهن من إشكاليات،هذا الراهن الذي لا نستطيع إنصافه بأن يحل فينا "عمانوئيل كنت" أو "برتراند راسل" أو "هيدجر" و"جادامر"،أو نركب رؤانا في ضوء لغة أخرى،ومن ثم فكر آخر ،بل الإنصاف والأمانة والوفاء للمعرفة وللحقيقة أن ننتج رؤانا ونكوّن عالمنا المعرفي بلغتنا. نعم،بلغتنا لأن اللغة ليست أداة محضة،على غرار أداتية المحراث والقلم وأجهزة التصوير وتسجيلات الصوت،وليست كياناً وجودياً مفارقاً لكينونة الآدمي وصيرورة الإنسان إنساناً،والمعرفة معرفة.

الملاحظة (٣):

أشرنا إلى ركون جل القائلين بإلهية الواضع إلى النصوص المقدسة،والمصير إلى مذهب ((التوقيف)) في وضع اللغة ونشأتها. ولم نعالج الاستدلال بالنصوص،إذ لا تشكل النصوص لدى عامة الباحثين الدليل الحاسم،إنما هي مناخ عام تترعرع فيه بعض الرؤى،وتفرض نفسها على النص بقراءته وتفسيره بما ينسجم مع الرؤى القبلية التي يستنطق النص هنا في ضوءها. النص القرآني إذا عكفنا على النصوص الإسلامية ،التي جاءت في القرآن الكريم والسنة الشريفة، واتكأ عليها القائلون بأن الله تعالى واضع اللغة،وأن اللغة ليست مواضعة واصطلاحا من قبل الجماعة الإنسانية نجدها محصورة في بضعة نصوص كقوله تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها " ،وقوله تعالى: "علّمه البيان"،ونظير ما أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي رافع قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلّها كما علم آدم الأسماء كلّها). لكن تعليم الأسماء الذي ورد به النص لم يتلقه المفسرون على معنى واحد يحملنا على الاستدلال بالآية لإثبات توقيفية اللغة،بل حتى ترجيح هذه الدلالة بشكل معقول. فقد خضعت الآية للتأويل أيمّا خضوع،فقد جاء في (المحرّر الوجيز) لابن عطية: (اختلف المتأوّلون في قوله "الأسماء" ... ذهب ابن عباس وقتادة ومجاهد إلى أنه علّمه إسم كلّ شيء من جميع المخلوقات ...وقال حميد الشامي: علّمه أسماء النجوم فقط،وقال الربيع بن خثيم: علّمه أسماء الملائكة فقط ... وقال الطبري: علمه أسماء ذريته والملائكة ...وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم .. وقال قوم: بل وصفها له دون عرض الأشخاص ... وقال القاضي أبو محمد: وهذه كلّها احتمالات قال الناس بها). أما الطبرسي في مجمع البيان فقد ذكر في تفسير قوله تعالى (.. الأسماء) وجهات النظر المتعددة وقال: (اختلفوا فقيل: فقيل علمه بأن أودع قلبه معرفة الأسماء و فتق لسانه بها،وقيل علّمه إياها بأن اضطره إلى العلم بها وقيل علمه لغة الملائكة).

- يتبع

تـنـويـه

سقط سهواً أمس اسم الكاتب آية الله السيد عمار أبو رغيف عن الجزء الأول من مقاله المعنون " قراءة النصوص وفلسفة الدلالة "..

لذا اقتضى التنويه مع الاعتذار..

تحـــريـــر الإعـــــلام

فريدة النقاش

نظم العاملون في قناة النيل للأخبار بالتعاون مع مؤسسة الأهرام ندوة حول مستقبل القناة بعنوان «ميلاد جديد.. استقلال حرية.. منافسة حقيقية» شارك فيها فريق كبير من الإعلاميين شبابا وشيوخا وتحدث كل من الزملاء حسين عبدالغني وفريدة الشوباشي وياسر عبدالعزيز وأدارت الحوار الدكتورة هويدا مصطفي. وأشار العاملون بالقناة أنها نشأت عام ١٩٩٨ باعتبارها قناة إخبارية غير تقليدية تراعي الحداثة في أسلوب التقديم والعرض وتتميز بالجرأة في التناول وتحقيق أكبر ق